كلمة الأستاذ الدكتور محمود السيد

نائب رئيس مجمع اللغة العربية

السيدة الدكتورة نجاح العطار نائب رئيس الجمهورية للشؤون الثقافية راعية هذا الحفل التأبيني

أيتها السيدات، أيها السادة، أيها الحفل الكريم: أسعد الله أوقاتكم

ما كنت أحسبني أن أقف في هذه القاعة مؤبّناً في حفل تأبينك يا أبا معن. ومنذ ثماني سنوات وقفت في هذه القاعة نفسها مهنئاً ومباركاً لك حيازتَك وسامَ الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة تقديراً من السيد رئيس الجمهورية لنضالك ومكانتك الأدبية المتميزة، وكان لي شرفُ تقليدك ذلك الوسام. وشتان بين الوقفتين: في الوقفة الأولى كانت الفرحة تملأ عليَّ عالمي، وفي الوقفة الثانية ها هو ذا الألم يعتصر الفؤاد لما آل إليه وضع البلاد الذي يحول دون الرُّقاد، ولكن تلك هي الحياة التي لا يدوم على حال لها شان، ولا يبقى من المرء إلا الأحاديث والذكر، وأنت القائل:

«لا بد أن ينتهي الإنسان، لكنه ينتهي جسداً، أما ذكرياتُنا وأحلامُنا وآمالُنا وأشعارُنا وكلُّ ما كتبناه فإنها تبقى مدى الحياة».

وعلى أيّ حال أقف الآن مهنئاً أيضاً أهلَك وأبناءَ وطنِك وأمتِك بسيرتك العطرة وحياتِك الزاخرة بالعطاء والإبداع، هنيءٌ لك ذكرك الطيّب، ومباركة لك سيرتُك المتألقة التي ستبقى حية ترددها الأجيال.

لم يكن بين رحيلك يا أبا معن في الثامن من شهر آب الماضي، ورحيل المربي الفاضل الأستاذ زهير مصطفى رفيقِ دربك في التشرد من لواء اسكندرون، ورفيقِ دربك في الدراسة ببغداد، وفي العمل بوزارة التربية وفي اليمن، سوى شهر واحد حيث غادرنا في الثامن من هذا الشهر، وكأنكما على موعد في الانتقال من هذه الدار إلى الدار الآخرة، وما من فارق بين رحيلكما سوى أنك دفنت في ثرى وطنك سورية، في حين حالت الظروف القاسية التي يمر بها الوطن دون دفنه في تراب وطنه، حيث دفن رحمه الله في المقبرة الإسلامية ببكين في الصين ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلعَظِيم.

إن شاعرنا الكبير سليمان العيسى قامة أدبية شامخة، عاش شظف العيش وقَسْوته، وكابد مر الحياة وآلامها، وعانى استبداد الطغاة وتعسفهم، ومرّ بأيام البؤس والحرمان، ومع ذلك كله ظلَّ متفائلاً أروع ما يكون التفاؤل، ولِمَ لا يكون متفائلاً مادام يحمل رسالة قومية، فقد وقف حياته لحلمه القومي، حلمِ الأمة العربية الواحدة، إذ يقول: «أعتز بشيء واحد هو أحلامي التي كانت وراء كلِّ كلمة قلتها في حياتي، ولا أرى لحياتي معنى من دون حلم: أنا طفل مشرد من لواء اسكندرون، رأى نفسه ذات يوم يُقتلع من تحت شجرة التوت التي تظلل باحة داره، ويُلقى في أحضان الغربة بعد انقطاع بلده الصغير، مسقطِ رأسه. ومنذ ذلك الحين فتحت عينيَّ على حلم عربي كان محور حياتي وشعري، وما زلت مصراً على هذا الحلم الذي تدور حياتي وشعري حوله».

أجل يا أبا معن لم تكن إلا شاعر الحلم القومي الذي وهبت له عصارة فكرك ورحيقه إبان مسيرة حياتك كلها، باثاً الوعي القومي في عقول أبناء الأمة ووجداناتهم،

ولاسيما الأطفال الذين رأيت أنهم أمل الأمة ومستقبلها من جهة، ولأنك في براءتك وصفاء سريرتك تشبه الأطفال براءة وصفاء من جهة أخرى و«شبه الشيء منجذب إليه»، وما كان توجُّهك إلى الكتابة لهم إلا نوعاً من التشبث بالمستقبل، وتمسكاً بالحلم الذي وقفت نفسك له، وها هي ذي صيحة تنطلق من أعماقك لتصرخ في وجه المشككين: «اتركوني أنا شاعر الحلم القومي، اتركوني لحلمي، لا بد أن يعود الحلم ذات يوم»، ومضيت تناضل بالكلمة لإنفاذ هذا الحلم غيرَ مكترث بالطغاة والغزاة، مضيت وأنت الخلية في جسد تبحث عن ملايين الخلايا من أخواتها، وتكافح بلا هَوادةٍ لكي يتحرك الجسد، وتتفتح الحياة، وجسدك هو أمتك، هذه الأمة العربية العظيمة المنكوبة الممزّقة والتي مدّت جذور الحضارة بينك وبين العالم منذ وجد هذا العالم، وكانت الحضارات. ومن هنا بدأت قصة الشعر في حياتك يا فقيد الأمة كلها.

وفي مسيرة الأمة نحو تحقيق حلمها الكبير في الوحدة تهب عليها العواصف الهوجُ من أعدائها، فتفتر عزائمُ بعضهم، ويصاب بعضهم الآخر بالإحباط واليأس، فيطل علينا شاعرنا الكبير ليبدِّدَ سحب اليأس والتشاؤم من عالمنا الممزَّق وواقعنا المؤرِّق، فإذا هو يتلتل الهمم الخامدة، ويهز النفوس الجامدة، ويظل متشبثاً بحلمه الذي وقف حياته له قائلاً ومتسائلاً:

هل ينتحر الحلم؟

هل نيأس...ونلقي بكل شيء إلى الهوة

هوةِ العدم والضياع التي يريد ونهالنا؟

إنني ما أزال متشبثاً بطفولتي

بأحلامي العتيدة.... بينابيعي التي لا تندحر

ما أزال أعيش بنبضات القادمين

بجذور سنديانة عتيقةٍ، عتيقةٍ كالدهر، مختبئةٍ في أعماق الأرض.

وها هو ذا يخاطب العروبة في دمه قائلاً:

عروبتــي في دمــي لا تيأســي أبــداً غــداً أحطّــم أغــلالي وأصــفادي

وجميل جداً ما يقوله الصديق الدكتور خالد الرويشان وزير الثقافة الأسبق في اليمن عندما خاطب شاعرنا قائلاً: «منك تعلمنا كيف نذرو أقمار أحلامنا في مفازات اليأس كي تثور سنابل حياة، وتفورَ ينابيع أمل».

ويبقى شاعرنا متعلقاً بحلمه الوردي، ويا له من حلم جميل خالد بأمة عربية واحدة ووطن عربي واحد:

أطلي علينا وحدة طيفَ وحدة

بريقاً سراباً كيفما شئتِ فاقدَمي

وهبتك عمري، ما وهبتُ سوى الظما

إليكِ أنا الحادي القتيلُ، أنا الظمي

لقد كنتَ وفياً يا أبا معن لمعلمك الأول الأستاذ زكي الأرسوزي الذي أحاطك بابتسامته العذبة الدائمة وبعينين تشعان حباً وأملاً وتفاؤلاً بالمستقبل، وبقيت وفياً لرفاق دربك الذين قاسموك شظف العيش وقسوته، ومرَّ الحياة وآلامها، وبقيت وفياً لوطنك وأمتك، وفياً للأرض والقيم والإنسان والكلمة الشريفة المسؤولة، مؤمناً بأن الكلمة هي الوسيلة المثلى لتحطيم القيود وتحرير الفكر والتصدي للزائف والجامد والتابع وغير ذلك

من غير الصحيح وغير الأصيل وغير الأخلاقي، ومؤمناً في الوقت نفسه بأن مهمة الكلمة أن تتحول إلى طاقة وفعل، فالكلمة ليست مجرد شكل لفظي يتألف من حروف وإيقاعات صوتية، إنها جزء لا يتجزأ من وجودنا، من حقيقتنا، من سلوكنا اليومي، فإذا لم تحمل الكلمة رصيداً من هذه الحقيقة ظلت شيئاً يدور في الفراغ، ولا يترك أي أثر، فالكلمة هي الإنسان.

أيها الحفل الكريم:

لقد كان فقيدنا مجبولاً بالوفاء والحنين الأبدي للوائه السليب وقريته التي أبصر فيها النور «النعيرية»، ولشجرة التوت التي تعلَّم حروف الأبجدية تحت ظلالها على يدي والده المغفور له الشيخ الوقور أحمد. وها هو ذا يسترجع موطن نشأته الأولى، إذ يقول:

أَأَهزُّ جرحك يا تراب المهد يا بلدي السليبا !
أعرفتَ شاعرَك الصغيرَ تصوغه أبداً لهيبا !
لولاك لم تعرف شفاهُ الشعر قافيةً خضيبا
لم تحترق منها العيونُ لتنهل الفجر القريبا
فجّرت نبعَ الوحدة الكبرى أترمُقُها غريبا ؟
وضّاءَة الخطوات تزحَم في انطلاقتها الغيوبا
وتظل كالعملاق تحشد حيث أومأت القلوبا
سنعود نعقِدُ في مروجك غرسها خمراً وطيبا

ولقد لخّص شاعرنا تجارب الوفاء التي مرَّ بها في حياته، فألفى أنها تتمثل في قوله:

لم ألقَ أكرمَ من تراب بلادنا نغتاله ويضمنا تحنانا

لقد سمّي شاعرنا الكبير شاعرَ العروبة والطفولة بعد أن وقف عمره لمجد العروبة وبراءة الطفولة، وهو إلى جانب هذه التسمية الصحيحة شاعر المقاومة أيضاً، فلنستمع إليه يقول: عبارة واحدة نستطيع أن نتحدى بها الدمارَ الذي ينصبُّ علينا، والموتَ الذي ألفناه، عبارة واحدة حرصتُ عليها في كل كلمة من أشعاري، وكلِّ نبضة من حياتي، وهي أننا باقون، بل إننا لم نبدأ بعد:

كجـــــذور الســـــنديان ســـــوف أبقـــــى
كالصـــــحارى كالزمان..ســـــوف أبقـــــى
ومـــن القـــبر العتيـــقِ، ومـــن المهـــوى الســـحيقِ
ومـن المـوت الـذي يُرهقني..عربيـاً سـوف أبقـى

وطالما ردد أبناء الأمة قول الشاعر:

أمـــةَ العـــرب لـــن تمـــوتي وإني أتحـــداك باســـمها يـــا فنـــاءُ

أما مسألة عضويته وعمله في مجمع اللغة العربية فتتلخص فيما يلي: كان شاعرنا المبدع في طفولته الأولى قد سمع بالمجمع العلمي العربي من والده الذي أشاد بهذا المجمع وحرصِه على خدمة اللغة العربية، وكان بيده مجلةُ المجمع وقد تضمنت البحوثَ الجادة والأصيلة لرجالات المجمع وعلمائه الأفاضل، وتساءَل الطفل سليمان: هل يتيح لي القدر أن أزور هذا المجمع وألقيَ نظرة عليه؟ ويجيب: ذلك حلم بعيد وفرصة ما أظنها تتاح في يوم من الأيام لطفل يقرزم قصائده الأولى تحت شجرة التوت في قرية مهملة نائية في أقصى الشِّمال من سورية لا يسمع بها أحد، ولا يعرفها أحد.

وتمضي الأيام، ويكبَر الطفل، ويأتي إلى دمشق بعد ضياع وطنه الصغير، ويزور المجمع العلمي العربي عندما كان طالباً في ثانوية جودة الهاشمي برفقة زميل له، ليستمع إلى محاضرة، وقد رأى في المجمع الشاعر شفيق جبري رحمه الله بعد أن لفت انتباهه وقارُه ورزانتُه، وتشاء الأقدار وبعد مسيرة حافلة بالعطاء الفكري وغزارة الإنتاج الأدبي أن ينتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٩٠ عضواً عاملاً في المجمع تقديراً لمكانته الأدبية وعبقريته الشعرية، وصدر المرسوم الجمهوري ذو الرقم ٢٠٧ عام ١٩٩١ بتعيينه، واستقبله المجمع، وألقى شاعرنا خطاباً في استقباله في جلسة علنية مساء يوم الأربعاء في التاسع عشر من الشهر التاسع من عام ٢٠٠١، وأشاد في خطابه بإبداع المجمعي الراحل الشاعر شفيق جبري، وقد حلَّ فقيدنا العيسى محلَّه في المجمع.

ولقد وجّه في خطاب استقباله في المجمع التحية الخضراء للشام إذ يقول: تحيتي الخضراء للشام، ملهمتِنا الأولى، وعروسِ قوافينا الخالدة، وملحمةِ أمجادنا العربية التي ما نزال نعيش على ذكراها، ونستظل بذراها، ومنذا الذي يستطيع أن يتجاوز عاصمة الحب والمجد والضوء إذا أراد أن يقول شعراً، أو يغنيَ لحناً، أو يتقلّدَ سيفاً في معركة؟. ويعترف الشاعر بأنه واحد من تلامذة العطر والياسمين في مدينة المجد والضوء والياسمين.

كان منحاه في عمله المجمعي أن يجمع بين الأصالة والمعاصرة، وينفتحَ على الجديد والحداثة انطلاقاً من الجذور وحفاظاً عليها، وها هو ذا منهجه يتمثل في قوله: «أعترف أنني كنت مشدوداً إلى التراث في المدة الأولى من نتاجي، وكانت ظلال القرآن والمعلقات وديوان المتنبي تحيط بي، وتشدُّ على يدي في كل قصيدة أكتبها، ولكنني ما لبثت أن انفتحت على عوالمَ جديدةٍ عندما أخذت أطالع بشغف الآداب الأجنبية وشعراءَ الغرب، ومع هذا فقد بقيت تجربتي الشعرية تجربة عربية تنأى عن أن تتزيّا بغير زيّها العربي الأصيل».

ذلكم هو المنهج الذي يعتمده مجمعُنا في الحفاظ على الجذور والانفتاح على الحداثة انطلاقاً من أن لغتنا غنية ولاّدة تفتح صدرها لكل جديد، وهي خير معبّر عن حياتنا، وأمينة على تراثنا، تبدع في تصويره وتجسيده محوطاً بسور عظمتها وشموخها.

وكان رحمه الله شديدَ الاعتزاز بلغته الأم «العربية الفصيحة» هويةِ أمتنا والمحافظةِ على ذاتيتها الثقافية، وكان مؤمناً بمستقبلها المشرق، وبأن الغلبة ستكون لها، فها هو ذا يقول على لسانها:

إذا تقطَّعـــــت الأرحـــــامُ بيـــــنكُمُ !
إذا تراكمـــــتِ الأســـــوارُ والحجُـــــبُ
إذا التمســـــتُمْ مـــــن الـــــدنيا هُـــــويتكم
وضـــــاع خلـــــف تخـــــومِ الغربـــــةِ النســـــبُ
فـــــلا تخـــــافوا، لكـــــم صـــــدرٌ يضـــــمُّكُمُ
ســـــتلتقون عـــــلى صـــــدري..أنا العـــــربُ
ومـــــا جَمَـــــدتُ..ولكن حِقبـــــةٌ جَمَـــــدت
فـــــــــأطلِقوني إلى الآتي . لِيَ الغَلَـــــــــبُ

كان فقيدنا الغالي في أثناء عمله في جلسات المجمع نسيماً عليلاً، وفكراً نيّراً، ولغة عالية المستوى، وتعاملاً إنسانياً راقياً مع الزملاء والموظفين كافة، ولكم كان يحن إلى المجمع وجلساته عندما أقعده المرض، وحال دون حضوره جلساتِه، وتحمل إليَّ السيدة وفاء أبو شامي محاسبة المجمع السابقة رسالة من شاعرنا الكبير كتبها بخط يده عنوانها «تحية مع وفاء» ويقول فيها:

أحِـــنّ إلى مجمـــع الخالـــدين تهـــيجُ بي الـــذكرياتُ الوِضـــاءُ
إلى إخـــوةٍ ورفـــاقٍ كـــرامٍ أُضـــيء بهـــم حالمـــاً، أو أُضـــاءُ
حُطـــامٌ أنـــا، لا أُطيـــق الحَـــراكَ وإلا ســـقيتُ الهـــوى مـــا يشـــاءُ
وجئـــتكُمُ طـــائراً مـــن حنـــينٍ بـــدون جنـــاحٍ.. وطـــاب اللقـــاءُ
رســـولي إلـــيكم..إلى إخـــوتي مكللـــةً بالتحايـــا.. وفـــاءُ

أيها الحفل الكريم:

لقد فقد مجمعنا مجمع اللغة العربية بدمشق من قبلُ في السنتين الماضية والحالية كوكبة من رجالاته رحمهم الله جميعاً: الأستاذ الدكتور محمد إحسان النص، الأستاذ الدكتور عزيز شكري، الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ، وها هو ذا مجمعنا اليوم يفقِد قامة شامخة وموهبة متألقة، ومنظومةَ قيم نبيلة وسامية، طالما رددت شفاه الأطفال كلماتِ هذه المنظومة في أناشيدهم على الصعيد العربي، وطالما أغنى ذاكرة الأمة بجمال أشعاره وبثَّ الوعي القومي، ورسّخ الأمل والتفاؤل في العقول والنفوس، وطالما عزّز الإيمان بانتصار الأمة على أعدائها مع قتامة الأجواء وشراسة أحابيل الأعداء.

لقد فقدت الأمة برحيله شاعراً مبدعاً ومناضلاً صلباً بالكلمة الهادفة بعد أن وقف حياته لخدمة اللغة العربية وحافظ على نضارتها ونصاعتها وعذب كلماتها، وسعى جاهداً دون كللٍ ولا مللٍ إلى تحقيق حلم كان هاجسَه، حلمِ الوحدة العربية، وعودةِ الأمة إلى إيقاد شعلة الحضارة مجدداً، ولم تزده الأحداث التي مرَّ بها ومرَّت بها الأمة إلا إيماناً بما دعا إليه ونادى به.

ستبقى أيها المجمعي الراحل لحناً خالداً على مرور الأيام ونجماً في سماء ثقافتنا العربية لا يأفل. وعزاؤنا ما خلّفته وراءَك من عِبَارات بشرية من أبناء بررة تحوطهم رفيقةُ دربك المربيةُ الفاضلة والأديبةُ المثقفة الدكتورة ملكة أبيض برعايتها الحانية، وعزاؤنا ما تركته للمكتبة العربية من تراث ضخم تنهل منه الأجيالُ القيمَ الوطنية والقومية والإنسانية، ورصيدٍ ضخم من اللغة العالية والصور والأساليب الشعرية المفعمة بالعذوبة والرقة.

رحمك الله يا أبا معن الرحمة الواسعة، سعةَ ما قدمته لأمتك من أفانين العطاء المبدع، وجزاك الله عنها خير الجزاء، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.